مجلة تراثية فصلية محكّمة

تصدر عن وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الثاني والثلاثون

العدد الثاني - ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

رئيس التحرير

د. محمد حسين الأعرجي

هيأة التحرير

مدير التحرير

د. هدى شوكت بهنام

سكرتير التحرير

محمود الظاهر

الهيأة الاستشارية

أ.د. خديجة الحديثي

أ.د. كمال مظهر

أ.د. فائز طه عمر

أ.د. داود سلوم

أ.د. مالك المطلبي

الاستاذ حسن عربيي

التصحيح اللغوي

سليم سلمان

نجلة محمد

الإشراف الفني والتصميم

جنان عدنان العامري

عنوان المراسلة

دار الشؤون الثقافية العامة

- الأعظمية -

ص. ب : ٤٠٢٢ بغداد

جمهورية العراق

هاتف : ٤٤٣٦٠٤٤

فاكس : ٤٤٨٧٦٠

الأسعار

العراق: ٥٠٠ دينار، الأردن: ديناران، الإمارات: ٢٠ درهماً، اليمن: ٢٠ ريالاً، مصر: ٣ جنيهات، ليبيا: ٢ دنانير، الجزائر: ٦٠ ديناراً، تونس: ديناران. المغرب: ٢٠ درهماً.

المشاركة السنوية

٥٥ دولاراً في الأقطار العربية. في دول العالم الاخرى ٨٠ دولاراً.

www.dorat-ghawas.com

حزنان ..... د. محمد حسين الاعرجي ٣

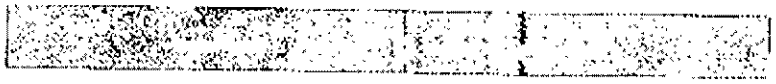

تأثير اللغة العربية في اللغة الرومانية ..... جورج غريغوري ٤-١٢

الحوار الاخير مع رائد علم
الاجتماع في العصر الحديث ..... عبد الجبار السامرني ١٣-١٨

دور الشفاء واثرها العلمي في بغداد
خلال العصر العباسي ..... د. فريال داود المختار ١٩-٢٩

العلاقات الدبلوماسية العباسية البيزنطية
في العصر العباسي الاول ..... موفق سالم الجوادي
د. عبد المنعم رشاد ٣٠-٣٧

قصة ثور الوحش- عند شعراء الطبقة الاولى-
ما بين التطور والانفتاح الرمزي ..... ايمان محمد ابراهيم العبيدي ٣٨-٥٤

ما لم ينشر من شعر أبي البقاء الرندي (٦٠١-٦٨٤هـ) .. صنعة د. محمد عويد محمد ٥٥-٥٨

عندما مصر العرب بلاد البرتغال اطلقوا على مدينة (كالة)
اسم البرتقال ثم عمموه على المملكة ..... مركز الانماء القومي ٥٩-٦٢

شعر يوسف بن لؤلؤ الذهبي (ت ٦٨٠هـ)
القسم الثاني ..... تحقيق عباس هاني الجراخ ٦٤-٨٧

فصول اخوانية للجاحظ في العقد الفريد
لم ترد فيما طبع من آثاره ..... د. يونس أحمد السامرائي ٨٨-٩٨

مصادر بريطانية عن الوطن العربي ..... ترجمة كاظم سعد الدين ٩٩-١٣١

قراءة في بائية البحتري في الاعتذار من الفتح
بن خاقان وعتابه ..... أ. د. فائز طه عمر ١٣٢-١٣٩

كوركيس عواد ١٩٠٨-١٩٩٢ حياته وآثاره ..... د. عبد الله عبد السوداني ١٤٠-١٥٠

www.dorat-ghawas.com

الحوار الأخير
مع رائد علم الاجتماع
في العصر الحديث

أجرى الحوار
عبد الجبار السامرائي

أجرى الحوار : عبد الجبار محمود السامرائي

كنت أفكر بدعوة أحد الدكاترة علي الوردي رائد علم الاجتماع في العصر الحديث . فعزمت على إجراء حوار معه في خريف عام ١٩٩٣ ، أراد من الوفاء لهذا العلم الكبير نشره على صفحات «المورد» .

والحقيقة أذكر أن الراحل الوردي طلب مني توجيه أسئلة مكتوبة ففعلت ، ثم سلمني الرد مكتوباً بخطه ، رحمه الله .

www.dorat-ghawas.com

علي الوردي [علي حسين محسن الوردي]

*ولد في بغداد في عام ١٩١٣ وتوفي يوم ١٤ تموز ١٩٩٥

*حصل على شهادة الليسانس من جامعة بيروت الامريكية في عام ١٩٤٣.

*حصل على شهادة الماجستير من جامعة تكساس في عام ١٩٤٨.

*حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة تكساس في عام ١٩٥٠.

*عيّن مدرساً لعلم الاجتماع في كلية الآداب (بغداد) في عام ١٩٥٠.

*رُقّي الى رتبة ((استاذ مساعد)) في عام ١٩٥٣.

*رُقّي الى رتبة ((استاذ)) في عام ١٩٦٢.

*أحيل الى التقاعد بناءً على طلبه ومنحته جامعة بغداد لقب ((استاذ متمرس)) في عام ١٩٧٠.

*أصدر الكتب الآتية:(١) شخصية الفرد العراقي (٢) خوارق اللاشعور (٣) وعاظ السلاطين (٤) مهزلة العقل البشري (٥) اسطورة الادب الرفيع (٦) الاحلام بين العلم والعقيدة (٧) منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته (٨) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي (٩) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (ثمانية أجزاء).

الوردي في اللغات الاجنبية

(١) كتاب ((دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)) تُرجمة الى اللغة الالمانية الدكتور فايروخ ونشرته دار النشر الجامعية ((لوختر هاند)) في عام ١٩٧٢.

(٢) كتاب ((وعاظ السلاطين)) ترجمه الى الفارسية محمد علي خليلي في عام ١٩٥٥.

(٣) البحث الذي القاه الوردي في المؤتمر الاجتماعي العالمي السادس الذي انعقد في ايفيان في عام ١٩٦٦ تُرجم الى الاسبانية ونشرته مجلة علم الاجتماع التي تصدرها جامعة المكسيك في نيسان ــ حزيران ١٩٦٧.

(٤) اطروحة الوردي للدكتوراه نشرتها دار النشر الامريكية ((هول)) في عام ١٩٨١.

(٥) مقتطفات من كتاب ((دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)) نشرتها دار النشر الالمانية ((انتون هاينمايزنهايم)) في عام ١٩٧٤.

البداوة والحضارة في المجتمع العربي

س:

*المعروف عنك أنك تدعو منذ زمن طويل الى انشاء علم اجتماع عربي يقوم على الأساس الذي وضعه ابن خلدون وهو الذي يتمثل في الصراع بين البداوة والحضارة. فما هو السبب الذي يدعوك الى ذلك؟

ج:

*في رأيي ان المجتمع العربي هو أكثر مجتمعات العالم من حيث معاناته للصراع بين البداوة والحضارة. فليس على وجه الأرض مجتمع عانى من هذا الصراع مثلما عاناه المجتمع العربي.

*ولست أقول هذا ذما للمجتمع العربي أو مدحا له.

فهو كغيره من مجتمعات العالم نتاج الظروف التي عاش فيها

www.dorat-ghawas.com

عبر تاريخه الطويل. ان من الواجب على الباحث العلمي الذي يريد دراسة أي مجتمع أن يتجنب التحيّز العاطفي له أو عليه. فكل مجتمع من المجتمعات البشرية له خصائصه التي يتميز بها عن غيره والتي لابد له في صنعها، بل هي صنيعة الظروف الجغرافية والتاريخية التي عاش فيها.

*لو ألقينا نظرة عامة على خارطة الكرة الارضية لوجدنا المنطقة العربية - وهي التي تمتد من الخليج العربي شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً - تتميّز عن غيرها من مناطق العالم بكونها تضم أعظم امتداد صحراوي على وجه الكرة الأرضية. وهذا معناه أنها أكبر منبع للبداوة في العالم.

*راجت في أواخر القرن الماضي نظرية اجتماعية مفادها ان البداوة مرحلة مرت بها كل الأمم في تطورها عبر التاريخ. وقد تبيّن الآن خطأ هذه النظرية، فالبداوة لا تنشأ الا في الصحراء. واذا وجدنا بدواً في أرض غير صحراوية فلابد أنهم تسللوا اليها من صحراء مجاورة.

*ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان المنطقة العربية لم تكن أكبر منبع للبداوة فحسب، بل هي كانت أيضاً مهد أعرق الحضارات في تاريخ العالم. وقد ظلت الحضارة تراودها حيناً بعد حين فتزدهر فيها تارة وتذبل فيها على وجه من الوجوه. وهذا هو ما حصل فيها تارة أخرى.

*يمكن القول على كل حال ان وجود البداوة والحضارة في المنطقة لابد أن يؤدي الى نشوب الصراع بينهما فيها على وجه من الوجوه. وهذا هو ما حصل فيها عبر تاريخها الطويل. ومازالت بقاياه موجودة في مجتمعنا نشهدها هنا وهناك في كثير من ملامح هذا المجتمع. ونحن الآن إذ نريد دراسة هذا المجتمع يجب أن لا نغفل عن هذه الصفة فيه.

*ان من المؤسف أن نرى بعض باحثينا الاجتماعيين غافلين عن ذلك، إذ هم يحاولون دراسة مجتمعهم في ضوء نظريات مستوردة لا تصدق عليه الا قليلاً.

س:

*اسمح لي أن أسألك عن البداوة بوجه عام، فهناك من يقول انها سبقت الحضارة في المنطقة العربية وغيرها، وانها هي التي حت الحضارة. فما رأيك في هذا القول؟

ج:

*ان هذا القول جزء من النظرية الاجتماعية التي أشرت اليها آنفاً والتي كانت رائجة في أواخر القرن الماضي ثم تبيّن خطؤها أخيراً.

*ان النظرية التي يؤخذ بها الآن في الأوساط العلمية هي ان البداوة والحضارة نشأتا معاً، أو في وقت متقارب. وهذا هو الذي حدث في المنطقة العربية عقب انحسار العصر الجليدي الرابع قبل عشرة آلاف سنة تقريباً.

*خلاصة هذه النظرية ان المنطقة العربية لم تكن صحراوية في أثناء العصر الجليدي الرابع. ففي ذلك العصر كانت طبقة الجليد تغطي المنطقة الواقعة الى الشمال منها، أي منطقة أوربا وروسيا وتركيا. أما المنطقة العربية فكانت غزيرة الأمطار زاخرة بالنبات والحيوان، وكان سكانها يعيشون في مرحلة الصيد والالتقاط، وهي مرحلة بدائية تسبق ظهور البداوة والحضارة معاً.

*ظلت المنطقة تعيش في هذه المرحلة الى أن بدأت طبقة الجليد التي كانت تغطي أوربا وغيرها تنحسر تدريجاً نحو القطب الشمالي. وقد أدى هذا الانحسار الجليدي الى تحول الأمطار نحو أوربا والى تضاؤلها في المنطقة العربية. وبذا تحولت المنطقة العربية الى صحراء قليلة الحيوان والنبات تضم بعض المراعي المتباعدة هنا وهناك.

*ازاء هذا التغير المناخي في المنطقة اضطر سكانها الى البحث عن طريقة أخرى للعيش بدلاً من طريقة الصيد والالتقاط. وبذا انقسموا الى فريقين، فالبعض منهم لجأوا الى ضفاف الانهار القريبة حيث امتهنوا الزراعة، وأنشأوا الحضارة، بينما الآخرون ظلوا في الصحراء حيث امتهنوا الرعي وصاروا يتنقلون بحثاً عن المراعي فيها.

*يميل بعض الباحثين الى القول بأن قصة آدم التي ورد ذكرها في الكتب الدينية ترمز الى هذا التحول في المنطقة. فقد كان آدم وزوجته يعيشان في الجنة منعمين حتى أغراهما الشيطان مما أدى الى طردهما منها، فصارا يكسبان الرزق بالكدح وعرق الجبين. وقد ولد لهما بعدئذ ولدان هما قابيل وهابيل، فاحترف أولهما الزراعة. بينما احترف الثاني الرعي. ثم وقع التنازع

www.dorat-ghawas.com

بينهما فقتل أحدهما الآخر ...

س:

*انك تقول بان الصراع بين البداوة والحضارة، أو بين هابيل وقابيل كما ورد في القصة المأثورة، مازال موجوداً نشهده في بعض ملامح مجتمعنا. فالرجاء منك توضيح ذلك بقدر الامكان.

ج:

*يجب أن نعلم ان لكل من البداوة والحضارة تراثية تناقض تراثية الأخرى. ونعني بالتراثية ما يعرف في المصطلح العلمي بالـ (Culture)، أي مجموعة القيم والتقاليد والعادات والمفاهيم والمألوفات التي يتميز بها مجتمع عن آخر.

*ان التراثية البدوية تدور حول ثلاثة محاور هي (١) العصبية القبيلية، (٢) الغزو، (٣) التفضل أوما يسمى في اللغة العربية القديمة ((المروءة)). أما التراثية الحضرية فهي تدور حول محاور مناقضة لمحاور البداوة، وهي: (١) السلطة الحكومية مقابل العصبية القبيلية، (٢) التخصص الحرفي والعمل مقابل الغزو، (٣) الاقتصاد النقدي مقابل التفضل. وبعبارة موجزة يمكن أن نصف البدو بأنهم غزاة محاربون بينما الحضر حرفيون منتجون.

*ان الحكومة يصعب قيامها في الصحراء، لأن البدو على حافة المجاعة دائما وهم غير قادرين أن يدفعوا الضرائب التي هي أساس كيان الحكومة. ان القبيلة هي التي تقوم مقام الحكومة في الصحراء، والتنازع بين القبائل فيها مستمر لا نهاية له.

ان الغزو كما وصفه أحد الباحثين صمام الأمن في الصحراء. فالبدو يتكاثرون طبيعياً كغيرهم من البشر ولكن المراعي في الصحراء لا يمكن انماءها لسد حاجة السكان المتكاثرين فيها، وهم مضطرون أن يتغازوا ويتناهبوا لكي يهلك الضعيف منهم ولا يبقى فيهم غير القوي الغالب.

*ان البدو يحتقرون العمل اليدوي والحرف بشتى أنواعها، فهم يعتبرونها من شأن الضعيف أو الجبان أو المرأة. أن أبشع شتيمة يوجهها البدو الى رجل منهم هي وصفهم له بأنه امرأة. ان الرجل النموذجي في البداوة هو الذي يكسب رزقه بحد سيفه.

*ولكن الرجل البدوي في الوقت الذي يفتخر بمقدرته على الغزو والنهب نراه من الجهة الاخرى يفتخر بالكرم والضيافة والنخوة والدخالة وحماية الجار وتلبية كل من يقصده في حاجة. وهذا هو ما كان يسمى في اللغة العربية القديمة ((المروءة)).

*ان المال الذي هو أحد محاور الحضارة نراه قليل الاهمية في البداوة. فالمال غاد ورائح كما وصفه حاتم الطائي، إذ هو معرض للغزو والنهب دائماً. ولذا كان البدوي كثير الاهتمام باكتساب الذكر والسمعة الحسنة. فهو اذا حصل على المال بحد سيفه أسرع الى بذله على جيرانه وضيوفه والقاصدين له لكي ينال الذكر الحميد بين الناس. يقول حاتم الطائي في الجواب على زوجته التي لامته على الاسراف في الكرم:

أماوي ان المال غاد ورائح

ويبقى من المال الأحاديث والذكر

*والآن بعد هذه المقارنة في التراثية بين البداوة والحضارة يحق لنا أن نتساءل عن تأثير كل منهما في حياتنا الاجتماعية الراهنة؟ وهل نحن أقرب الى البداوة أو الحضارة في تفكيرنا وسلوكنا؟

*قلت مراراً، وأعيد القول الآن، ان الكثيرين في مجتمعنا هم متحضرون في ظاهرهم، ولكنهم بدو في الباطن. وهذا ينطبق بدرجة كبيرة على سكان الريف، وعلى سكان المدن الذين هم من أصل ريفي، وقد يصح أن القول هذا عن بعض سكان المدن العريقين أيضاً. فهم قد تقمصوا بعض مظاهر الحضارة، كالمساكن والملابس والمجاملات، وحصلوا على الشهادات والوظائف الحضرية، أو احترفوا المهن الحضرية، غير أنهم في اعماقهم مازالوا يلتزمون بالقيم البدوية كالانتماء القبلي والاسراف في الضيافة والتباري في الكرم وبالفخار بالنخوة والدخالة وتقدير الغلبة والشطارة وما أشبه.

س:

*أعود الى السؤال مرة أخرى وهو فيما يتصل بالصراع بين البداوة والحضارة، فما هي طبيعة هذا الصراع؟ وكيف جرى في هذه المنطقة عبر تاريخها الطويل بحيث أدى الى تغلغل القيم البدوية في أعماق الكثيرين منا على النحو الذي ذكرته.

ج:

*يمكن أن نصنف الصراع بين البداوة والحضارة الى صنفين رئيسيين هما الصراع الحاد والصراع المزمن. ونقصد بالصراع الحاد هو الذي يتمثل بالحروب والفتوح، حيث تخرج موجات كثيفة من البدو نحو الحضارات المجاورة فتسيطر عليها وتؤسس

www.dorat-ghawas.com

فيها الدول. وهذا الخروج قليل الحدوث في التاريخ لان البدو مشغولون عادة بغزواتهم ومنازعاتهم القبيلية داخل الصحراء، فلا يتفقون أو يتحدون فيما بينهم الا في أحوال نادرة، واذا حصل بينهم هذا الاتحاد لسبب من الأسباب فهم يستطيعون أن يتغلبوا على الحضارات المجاورة بسهولة. فهم لكثرة ممارستهم للحروب والغزوات فيما بينهم يكونون أقدر على النصر من الحضر.

*أما الصراع المزمن بين البداوة والحضارة فيتمثل في التسلل التدريجي الذي تقوم به بعض القبائل البدوية عبر حدود الحضارات المجاورة سعياً وراء الماء والمراعي فيها. وهذا التسلل يكون على أشده عندما تكون السلطة الحكومية في الحضارة المجاورة ضعيفة، فان القبائل المتسللة تنتهز الفرصة فتسيطر على بعض المناطق وتؤسس فيها إمارات قبيلية. وهذا هو ما حصل فعلاً في العراق في الفترة ((المظلمة)) التي حلت به عقب سقوط الدولة العباسية. فقد كانت السلطة الحكومية حينذاك، ولا سيما في العهد العثماني الأخير، ضعيفة جداً لا يهمها من رعاياها سوى دفع الضرائب ولا تبالي بعدئذ بما يفعل الناس بأنفسهم. وبذا سيطرت الامارات القبيلية على الكثير من مناطق العراق، ولا سيما الريفية منها. واضطر السكان من أهل المدن وغيرهم ان يلتزموا بالانتماء القبيلي وبالقيم البدوية من أجل المحافظة على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

*إني أدركت في صباي بقية من ذلك العهد، اذ كانت القيم العشائرية هي السائدة في الناس. ولم يكن من النادر أن تقع معركة عنيفة بين المحلات في المدينة الواحدة، أو بين مدينتين، أو بين مدينة والعشائر المجاورة لها، أو بين عشيرتين.

*كنت أسمع عن أفراد في كل بلدة اشتهروا بالبطولة حسب العرف السائد فيها. وهم الذين كانوا يطلق عليهم لقب ((الأشقياء)). فكان الواحد منهم يسطو على البيوت ويقطع الطرق ويسفك الدماء. وهو يفتخر بذلك على شريطة أن يقوم بأعماله الاعتدائية في خارج محلته أو عشيرته. أما في محلته وعشيرته فهو حامي الحمى والمغوار صاحب النخوة والنجدة. وهو تزداد مكانته الاجتماعية ارتفاعاً في نظر الناس كلما ازداد عدد قتلاه وغاراته البطولية.

*ان هذا الذي شهدناه في العراق في العهد العثماني قد نجد ما يشبهه قليلاً أو كثيراً في أقطار عربية أخرى، ولا سيما تلك الاقطار التي مرت بها فترة انحطاط حضاري وضعفت فيها سلطة الحكومة مدة من الزمن. ان ((الشقي)) في العراق يقابله ((الفتوة)) في مصر، و((القبضاي)) في لبنان، الخ...

*لا ننكر ان المجتمع العربي يتمخض الآن عن نهضة حضارية كبرى تكاد تشبه الطفرة من بعض وجوهها. ولكن هذا لا يعني أن نغفل عما في أعماقنا من بقايا القيم البدوية التي مازالت تؤثر فينا من حيث ندري أو لا ندري.

*ان استفحال القيم البدوية القديمة فينا خلال فترة طويلة من الزمن لا يمكن أن يختفي دفعة واحدة. فمن طبيعة القيم الاجتماعية أنها تتغير تبعاً لتغير ظروفها، ولكن تغيرها بطيء لا يناسب تغير الظروف حولها.

*ان القيم البدوية تلائم حياة الصحراء، غير انها لا تلائم حياة الحضارة، ولا سيما الحضارة الحديثة التي نحن مقبلون عليها.

*ان الحضارة بوجه عام، والحضارة الحديثة بوجه خاص، فيها مساوىء كثيرة، وان البداوة قد تفضل عليها من بعض النواحي. ولكن المشكلة ليست في أي منهما أفضل، بل فيما يجب أن نفعله في المرحلة الراهنة التي نعيش فيها.

*ان الحضارة الحديثة محتومة علينا لا مفر منها. فنحن مضطرون الى السير في طريقها على الرغم من كثرة مساوئها. ونحن الآن مخيرون بين أن نسير في طريق هذه الحضارة أو نعود الى البادية.

*يرى بعض مفكرينا أننا يجب أن نختار من البداوة محاسنها ومن الحضارة محاسنها، ونبني لأنفسنا حضارة مثلى تحتوي على جميع المحاسن وتخلو من المساوىء. وهذا رأي لا يمكن أن نصفه الا بأنه طوبائي غير واقعي. اننا لا نستطيع أن نكون في اختيار المحاسن والمساوى كالذي يشتري البطيخ من البقال حيث يلتقط الجيد منه ويترك الرديء.

*ان الله خلق الدنيا على نواميس لا محيص منها، كماأشار اليه الغزالي في بعض كتبه. ومن يريد النجاح فيها ينبغي أن يسير وفق تلك النواميس، وليس وفق النواميس التي يشتهيها.

*ان ((الزمن الرديء)) الذي حل بالعرب في وضعهم الراهن لا يجوز أن نعزو سببه كله الى العدو الخارجي. فالواقع ان العدو

www.dorat-ghawas.com

الداخلي الكامن في أعماقنا لا يقل خطراً علينا من العدو الخارجي. ونحن مادمنا نروم السير في طريق الحضارة الحديثة وجب علينا أن نكشف عن مكامن العدو الداخلي فينا ونحاول التخلص منه بمقدار جهدنا.

*نبذة مقتبسة:

*لعل من المجدي في هذه المناسبة ان أنقل نبذة من بحث لي كنت قد ألقيته في مؤتمر عقد في الكويت في عام ١٩٧٤ حول ((ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي)). وأني أرجو أن يكثر عقد مثل هذا المؤتمر في الأقطار العربية المختلفة، فقد شبعنا الى حد التخمة من الأفكار الطوبائية والخطابية التي اعتدنا عليها زمنا طويلاً فلم تنفعنا شيئاً، أو لعلها أضرت بنا اكثر مما نفعتنا.

*ان النبذة التي أنقلها فيما يلي تبحث في التناقض الموجود بين القيم البدوية وقيم الحضارة الحديثة. وهذا نصها:

*((ان الحضارة الحديثة يمكن تشبيهها بالماكنة المعقدة ذات الأجزاء الدقيقة، فكل جزء منها ينبغي أن يكون في مكانه المناسب له. وهذا هو ما يعرف الآن بمبدأ وضع الشخص المناسب في المكان المناسب. ان الحضارة الحديثة بعبارة أخرى تنظر الى كفاءة الشخص ومدى قدرته على أداء العمل الذي يناط به بغض النظر عن صلاته الاجتماعية أو عصبيته القبيلية أو أي اعتبار آخر من الاعتبارات التي اعتدنا عليها في مجتمعنا.

**((ان القيم البدوية التي لا تزال تلعب دورها في حياتنا الاجتماعية تقدر الانسان بمقدار ماله من قرابة أو جيرة أو ولاء أو فضل سابق أو صداقة أو ما أشبه. فهذا من عشيرتي، وهذا جاءني دخيلاً ينخوني، وهذا له حق الزاد والملح، وهذا كان أبوه صديقاً له، الخ... والواقع ان هذه القيم خلابة بما فيها من روعة عاطفية. فالرجل الذي يتصف بها يكون محبباً الى نفسك لانك تجده مستعداً لعونك في الملمات، ولكن هذا الرجل لا يصلح أن يتولى منصباً حكومياً أو يكون له نفوذ في دوائر الحكومة، إذ هو يسعى في حاجات الناس تبعاً لتلك القيم، ومعنى هذا اتباع مبدأ الوساطة والمحسوبية بدلاً من مبدأ وضع الشخص المناسب في المكان المناسب.

*((مشكلة الكثيرين منا أنهم لا يدركون طبيعة التناقض الموجود بين هذين المبدأين. فترى أحدهم يدعو تارة الى مبدأ المساواة في تطبيق القانون واعطاء كل ذي حق حقه، ويدعو تارة أخرى الى مبدأ المحاباة حسبما توحي به القيم البدوية الموروثة. انه قد نشأ على مبدأ المحاباة في محيطه المحلي، ثم تعلم بعدئذ مبدأ المساواة التي جاءت به الحضارة الحديثة. وهو لذلك يتخذ هذا المبدأ أو ذاك حسب مقتضى الحاجة التي يشعر بها آنيا.

*((انه عندما يكتب أو يخطب يكون شديد الحماس لمبدأ المساواة، بينما هو في سلوكه العملي يتبع مبدأ المحاباة ويحتقر مخالفيه. فهو اذا كانت لديه حاجة في دوائر الحكومة مثلاً أسرع الى الوسطاء من أولي النفوذ يستنجد بهم وينخوهم على الطريقة البدوية القديمة، انما هو لا يكاد يلمح أحداً غيره قد غلبه في الوساطة وحصل على الشيء المطلوب قبله حتى تجده قد انقلب الى شخص آخر وصار يدعو الى مبدأ المساواة واعطاء كل ذي حق حقه.

*((والملاحظ ان الذين ينالون المناصب الحكومية العالية في بلادنا يعانون من هذا التناقض الشيء الكثير، فهم يجدون أنفسهم في بعض الأحيان تحت وطأة ضغطين متضادين: فهم قد يصعب عليهم رد طلاب الوساطة والنخوة من جهة، وهم من الجهة الأخرى يصعب عليهم مخالفة النظم الحديثة التي توجب المساواة بين الناس من غير تفريق. ولعلني لا أغالي اذا قلت ان كل موظف كبير في أية حكومة عربية الآن يعاني من هذه المشكلة قليلاً أو كثيراً. وهذه المشكلة لا تقف عند هذا الحد من حيث معاناة الأفراد منها، بل هي تشمل الأمة كلها على نطاق واسع. فالأمة العربية الآن تريد أن تسابق الزمن في تبني الحضارة الحديثة من حيث تنظيم أجهزتها العسكرية والسياسية والاقتصادية لكي تكون قادرة على معالجة التحديات المختلفة التي تواجهها، وقد أصبحت القيم البدوية عقبة في طريقها هذا، وهي مضطرة اذن الى التخلص من تلك القيم قبل فوات الأوان)).

www.dorat-ghawas.com